

الدراما الرمضانية تفتقد عملا بحجم ليالي الحلمية

ملحمة اجتماعية تمسح نصف قرن من تاريخ مصر



الحلمية بعد أن هجرها الباشوات

وسلوحيات كيدية أضفت على القصة المزيد من الطرافة وتمثلت في أداء صلاح السعدني (سليمان غانم) الذي كثيرا ما يجنح نحو المبالغة، أما يحيى الفخراني (سليم بدري) فتميز بحس عال من الأداء الواقعي الذي لا يخلو من فريدة وتميز.



لم يغفل عاكشة فئة إلا وتحدث عنها بذكاء ليمسح تحولات قاربت النصف قرن من تاريخ مصر الحديث

بين هذين الرجلين تسير الأحداث رقراقة وبمنتهى الاستيعاب حتى كان الممثلين حفطوا أدوارهم كاملة منذ الجزء الأول، وقبل أن يكتبها المؤلف تتابعا حتى نهاية الجزء الخامس، أما في السادس الذي كتب بعد وفاة عاكشة فقد اختلف في شأنه الجمهور والنقاد وحتى الممثلون. ينبغي القول إن "ليالي الحلمية" قد حقق الشهرة والنجومية لكاتبه أكثر من مخرجه إسماعيل عبدالحافظ الذي استنزفه هذا العمل على حساب أعماله الناجحة والمميزة الأخرى، بالإضافة إلى أن البعض يتناسى قدرته على تحويل السورق إلى عوالم تنبض حياة، وجهده الخارق في إدارة كوكبة هائلة من الممثلين الذين كانوا في قمة نضجهم في مرحلة استعاد الناس فيها تقفهم بالتلفزيون. اليوم، وبعد مرور أكثر من عشر سنوات على رحيل أسامة وشريكه إسماعيل ووفاة عدد كبير من مبدعي هذا العمل، نرى أنه أشبه بالإرث الخالد والأساس المتين الذي يسمح بالبناء فوقه تكملة للمسار الذي بدأه عاكشة وعبدالحافظ.

مصنع البدري ثم يديره ويتزوج من قمر السماحي وسهيلة الفلسطينية ليصبح في الجزء الأخير من المسلسل مخرجا سينمائيا فاشلا، إلا أن أختها غير الشقيقة زهرة، تتجه إلى عالم الصحافة كقوة ناعمة تؤثر وتتأثر بالأحداث على قدر هوامش الحريات، وتؤسس لجيل جديد من البرجوازية الصغيرة.

يمضي أسامة أنور عاكشة في تشريح المجتمع المصري بقلم يشبه بمضخ الجراح، طيلة خمسة أجزاء بنهاراتها ولياليها، لا يهمل صغيرة ولا كبيرة طيلة هذه الملحمة الاجتماعية التي وقع عليها اسمه بكل جدارة واستحقاق.

تعرض جميع الفئات الاجتماعية نفسها في "ليالي الحلمية" دون تكلف أو فبركة أو إقحام بل بمنتهى السلاسة والعفوية. ولم يغفل عاكشة فئة إلا وتحدثت عنها بذكاء وإسهاب ليمسح تحولات قاربت النصف قرن من تاريخ مصر الحديث، دون انحياز واضح أو مفضوح، رغم هواء الناصري الذي يظهر ويختفي في كل مرة، لكنه يبدو "بوصلة" بالنسبة إليه من خلال تمجيده لبعض الشخصيات مثل الشهيد طه السماحي، الذي كان يتميز بذاك النقاء الثوري حين نذر نفسه للضلال من أجل وطنه وأصبح رمزا من رموز المقاومة الوطنية تسانده نجاة عبدالفتاح سلطان التي تزوجته فيما بعد ومعهم كمال خله، المسيحي الوحيد بالمسلسل.

ولم ينس عاكشة شخصيات فاعلة تمثل الطبقة العاملة مثل الأسطى زكريا، الأسطى شاهين، الأسطى متولي وبقيّة عمال مصنع البدري الدائمين، وكذلك غالبية سكان الحلمية الذين خرج منهم فدايون قبل ثورة يوليو وبعدها.

كما لم يتجاهل صاحب "ليالي الحلمية" الفئات الوضيعة من السوقة والأوغاد وسقط المتاع مثل بسبوني (بساه)، وخميس (خميس) وهما من حثالة المجتمع فلا يتورع الواحد منهما عن كسب أي مال بالحلال أو بالحرام، وقد مارس الأثنان النصب والإحتيال على سليمان غانم، بطريقة تبدو مخيرة للضحك رغم خساستها.

العمود الفقري الذي بنى عليه عاكشة لعبعته الدرامية في "ليالي الحلمية" هو قطبا تكملة للمسار الذي بدأه عاكشة وسليمان غانم، وما بينهما من مناقات

لاحقا ليتعلق بزهرة بنت نازك من جهة سليمان غانم، وذلك عادل (هشام سليم)، أخوه غير الشقيق.. وتتوالى الأحداث وتتصاعد لتكتشف في كل مرة علاقة كانت غامضة أو نسب ظل ملتصبا قديما الصورة بالإكتمال، لكنها تعود وتتسع فترتي من التشويق والإكتشاف.

تتوالى الأحداث في الأجزاء الملاحقة، والتي داب جمهورها من المحيط إلى الخليج على انتظاراتها زهاء العام، وتتشابك المصائر لتبتدل بشخصيات وتفتت شخصيات أخرى، حتى أصبحنا نربحها تكبير حقيقة لا من خلال الماكياج.

تحولات نصف قرن

الظلال السياسية لـ"ليالي الحلمية" تمشي بالتوازي مع سير الأحداث الاجتماعية، فيعكس في كل مرة أحدهم الآخر، وتبدأ هذه التأثيرات من هجرة الصناعي ذي المنشأ البرجوازي سليم البدري، إلى أوروبا أثناء ثورة 1952 يوليو، وما رافقها من تميم أضرب بالبقى الوطنية الصاعدة، ثم مجيء فئة الإقطاعيين وانتشارهم في المدن من خلال سليمان غانم.

تستمر السياسة والمجتمع في السير بخط متوازن من خلال شخصية علي بن البدري الذي يسجن في نكسة يونيو 1967 ثم ينطلق بلا هوادة في عالم المال والأعمال، أما أخوه غير الشقيق عادل، حرب أكتوبر 1973 ويعمل في

استغلال الصراع نحو أقصاه، وذلك على خلفية مجيء العمدة سليمان غانم، للثار لوالده الذي مات في السجن كمد بسبب مكيدة دبرها والد سليم البدري، أول المبشرين بعصر صناعي واعد تتلمسه البرجوازية الوطنية.

بدأت المواجهة بين الطبقتين بشراء غانم لأسهم في مصنع البدري للمنسوجات ثم في فضح زواج سليم البدري السري من علية بدوي القماش. تكتشف نازك السلحدار أن زوجها سليم البدري متزوج عليها في الخفاء فتقوم بمواجهته واستفزازه ليطلقها ثم تتزوج خصمه وعدوه الجديد سليمان غانم، على سبيل الكيدية والانتقام.

تشترط نازك على سليمان أن تكون العصمة بيدها للموافقة على الزواج. يوافق العمدة سليمان على مضض لكنه يقبل من أجل إغالة خصمه الدائم ابن البدري. وهنا تبرز المفارقات ذات الطابع الكوميدي بين الإرث الإقطاعي الذي يمثله العمدة بمزاجه النزق وانفعاليته الزائدة، وبين سليم البدري سليل البرجوازية التي تعرفت إلى الثقافة الغربية لكنها حافظت على حس الطرافة وخفة الدم المصرية.

هذه الزيجة التي لم تدم طويلا بين امرأة أرسنقراطية وفلاح مصري تظهر الكثير من المفارقات في تفاصيل معيشية صغيرة برع أسامة عاكشة في تصويرها. ثمرة هذه الزيجة غير المتكافئة هي بنت (زهرة) تودعها أمها لدى والدها كي يرببها في نوع من الندم على هذه التجربة.

وفي هذه الأثناء تعود نازك السلحدار إلى الزواج مرة ثانية من سليم بدري، الرجل الخنث الذي يحترم أنوثتها ويقدرها حق قدرها رغم أخطائه، وذلك في غوص من المؤلف داخل طبيعة هذه الشخصيات التي تحكمها قيم طبقية، لكن الأمر لا يخلو من رمزية سياسية واجتماعية لدى المؤلف المخصص أصلا في الدراسات الاجتماعية، إذ يبدو واضحا وكان نازك هي الدولة التي يتناوب على سياستها فئتان اجتماعيتان أو ربما هي ظلت ممزقة بين الطرفين، وبينهما "زهرة" مصر الجديدة (الهام شاهين)، ذات المنبت الفلاحي (الهوام شاهين)، حيث اتهم الكثيرون ورتة الكاتب الراحل أسامة أنور عاكشة بتلويث أيديهم بتوقيعهم بالموافقة على عمل جزء سادس يكتبه كل من عمرو محمود ياسين وأيمن بهجت قسر، ووصفوا المسلسل بأنه لا يليق، حتى أن البعض قام بنشر صور لصاحبي الملحمة الدرامية أسامة أنور عاكشة والمخرج إسماعيل عبدالحافظ، وعلقوا عليها قائلين "رحموهما في قبريهما".

وفي هذا السياق، شن المخرج محمد العدل هجوماً على منتججي الجزء السادس، قائلا على حسابه على موقع التواصل الاجتماعي، فيسبوك "مع الاحترام والاعتذار لأيمن بهجت قمر ومجدي أبوعميرة وأسامة أنور عاكشة، ليالي الحلمية لا تخصم وحكمك، إنها جزء من تاريخنا. تشويه هذا العمل ليس حقا لكم على الإطلاق، وساعتيره جزءا من العشوائية التي نعيشها. حرام عليكم سبيوا الراحل مرتاح في تربته".

وتأتي المفاجآت المنتظرة الأخرى كتبديل ممثل بأخر أو التخطيط الذي يصيب العمل بالوهن ويسقط في شراك المثل، إذ أن المؤلف إنما استمر في أجزاء جديدة و"توزط" فيها بفعل إقبال الجمهور عليها ورغبته في التمديد، وهنا تكمن المشكلة التي تقع فيها أشهر المسلسلات المصورة، ليس في العالم العربي فقط بل لدى أعتى الشركات الإنتاجية وأكثرها حرفية وقدرة على الإنتاج.

أما عن الغياب المفاجئ لمنتجي العمل أو أحد الشركاء فمشكلة عاشها مسلسل "ليالي الحلمية" وعانى منها، ولا يزال الجدل مستمرا حول الجزء السادس من مسلسل "ليالي الحلمية"، حيث اتهم الكثيرون ورتة الكاتب الراحل أسامة أنور عاكشة بتلويث أيديهم بتوقيعهم بالموافقة على عمل جزء سادس يكتبه كل من عمرو محمود ياسين وأيمن بهجت قسر، ووصفوا المسلسل بأنه لا يليق، حتى أن البعض قام بنشر صور لصاحبي الملحمة الدرامية أسامة أنور عاكشة والمخرج إسماعيل عبدالحافظ، وعلقوا عليها قائلين "رحموهما في قبريهما".

وفي هذا السياق، شن المخرج محمد العدل هجوماً على منتججي الجزء السادس، قائلا على حسابه على موقع التواصل الاجتماعي، فيسبوك "مع الاحترام والاعتذار لأيمن بهجت قمر ومجدي أبوعميرة وأسامة أنور عاكشة، ليالي الحلمية لا تخصم وحكمك، إنها جزء من تاريخنا. تشويه هذا العمل ليس حقا لكم على الإطلاق، وساعتيره جزءا من العشوائية التي نعيشها. حرام عليكم سبيوا الراحل مرتاح في تربته".

الجزء الأول، يتكون من 18 حلقة ويعتبر مقدمة للمسلسل وتعريفاً بالشخصيات الرئيسية الثلاث وهم: سليم البدري (يحيى الفخراني) وسليمان غانم (صلاح السعدني) ونازك السلحدار (صفية العمري). ويفتح فيه أسامة عاكشة، أبواب الصراع، منذ بدايته، بين حساسيتين اثنتين هما الإقطاع والبرجوازية الصاعدة وبينها الرمزية الفاعلة للسلطة والامتيازات وهي السيدة نازك السلحدار التي تذهب في

كل حلقة من حلقات "ليالي الحلمية" هذا المسلسل الأسر كانت كفيفة ولا زالت حتى اليوم بأن تهز قناعات وتحرك وعيا كامنا من أبسط وأفقر فئات المجتمع إلى أكثرها قدرة على التأثير والتغيير ليثبت أسامة أنور عاكشة وإسماعيل عبدالحافظ أنهما ثنائي من العيار الثقيل والزمن الجميل.

نعم، إن الدخول للتحدث في عمل درامي شهير من خلال شارته الموسيقية أو الغنائية لهو دليل على مدى رسوخه في الأذهان لكثرة مشاهدته والأفتان به، على غرار أفلام عالمية. ولم لا - مثل أغنية سيلين ديون، في "تيتانيك"، وقبلها بكثير، موسيقى فيلم "من أجل حفنة من الدولارات" لكليبت إستوديو، والتي وضعها الإيطالي إينو ماركوني. وما دمنا مازلنا عند الشارة الغنائية لهذا المسلسل، فإن الإتقان والمهنية يظهران حتى في عمليات التقطيع التي تخص "الجيتريك" فكل وجوه الممثلين تبرز حسب مساحة الدور والفاعلية والتسلسل الزمني دون أن تحرق الأحداث أو تستبقها.

عادة ما تواجه الأعمال الدرامية الموزعة على أجزاء، ولفترات زمنية قد تمتد لسنوات، إشكاليات كثيرة تتعلق بتدفق الأحداث أو نضوبها، إذ أنها لا تحافظ بالضرورة - على نفس السوية من حيث تطور الأحداث والشخصيات. كما أن وفد العمل بخطوط درامية جديدة، من شأنه أن يشوش المتلقي أو يصيبه بخيبة أمل بالنظر إلى تعاطفه مع شخصيات دون غيرها.

وتأتي المفاجآت المنتظرة الأخرى كتبديل ممثل بأخر أو التخطيط الذي يصيب العمل بالوهن ويسقط في شراك المثل، إذ أن المؤلف إنما استمر في أجزاء جديدة و"توزط" فيها بفعل إقبال الجمهور عليها ورغبته في التمديد، وهنا تكمن المشكلة التي تقع فيها أشهر المسلسلات المصورة، ليس في العالم العربي فقط بل لدى أعتى الشركات الإنتاجية وأكثرها حرفية وقدرة على الإنتاج.

أما عن الغياب المفاجئ لمنتجي العمل أو أحد الشركاء فمشكلة عاشها مسلسل "ليالي الحلمية" وعانى منها، ولا يزال الجدل مستمرا حول الجزء السادس من مسلسل "ليالي الحلمية"، حيث اتهم الكثيرون ورتة الكاتب الراحل أسامة أنور عاكشة بتلويث أيديهم بتوقيعهم بالموافقة على عمل جزء سادس يكتبه كل من عمرو محمود ياسين وأيمن بهجت قسر، ووصفوا المسلسل بأنه لا يليق، حتى أن البعض قام بنشر صور لصاحبي الملحمة الدرامية أسامة أنور عاكشة والمخرج إسماعيل عبدالحافظ، وعلقوا عليها قائلين "رحموهما في قبريهما".

وفي هذا السياق، شن المخرج محمد العدل هجوماً على منتججي الجزء السادس، قائلا على حسابه على موقع التواصل الاجتماعي، فيسبوك "مع الاحترام والاعتذار لأيمن بهجت قمر ومجدي أبوعميرة وأسامة أنور عاكشة، ليالي الحلمية لا تخصم وحكمك، إنها جزء من تاريخنا. تشويه هذا العمل ليس حقا لكم على الإطلاق، وساعتيره جزءا من العشوائية التي نعيشها. حرام عليكم سبيوا الراحل مرتاح في تربته".

الجزء الأول، يتكون من 18 حلقة ويعتبر مقدمة للمسلسل وتعريفاً بالشخصيات الرئيسية الثلاث وهم: سليم البدري (يحيى الفخراني) وسليمان غانم (صلاح السعدني) ونازك السلحدار (صفية العمري). ويفتح فيه أسامة عاكشة، أبواب الصراع، منذ بدايته، بين حساسيتين اثنتين هما الإقطاع والبرجوازية الصاعدة وبينها الرمزية الفاعلة للسلطة والامتيازات وهي السيدة نازك السلحدار التي تذهب في

الجزء الأول، يتكون من 18 حلقة ويعتبر مقدمة للمسلسل وتعريفاً بالشخصيات الرئيسية الثلاث وهم: سليم البدري (يحيى الفخراني) وسليمان غانم (صلاح السعدني) ونازك السلحدار (صفية العمري). ويفتح فيه أسامة عاكشة، أبواب الصراع، منذ بدايته، بين حساسيتين اثنتين هما الإقطاع والبرجوازية الصاعدة وبينها الرمزية الفاعلة للسلطة والامتيازات وهي السيدة نازك السلحدار التي تذهب في

الجزء الأول، يتكون من 18 حلقة ويعتبر مقدمة للمسلسل وتعريفاً بالشخصيات الرئيسية الثلاث وهم: سليم البدري (يحيى الفخراني) وسليمان غانم (صلاح السعدني) ونازك السلحدار (صفية العمري). ويفتح فيه أسامة عاكشة، أبواب الصراع، منذ بدايته، بين حساسيتين اثنتين هما الإقطاع والبرجوازية الصاعدة وبينها الرمزية الفاعلة للسلطة والامتيازات وهي السيدة نازك السلحدار التي تذهب في



حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

"منين بيجي الشجن... من اختلاف الزمن، ومنين بيجي الهوى... من ائتلاف الهوى، ومنين بيجي السواد... من الطمع والعناد، ومنين بيجي الرضا... من الإيمان بالقضاء، من انكسار الروح في دوح الوطن، يجي احتضار الشوق في سجن البدن... أغنية وموسيقى تؤديان دورا بطوليا.

مجرد سماع هذه الأغنية بجيلنا إلى ما اتفق الجميع على تسميته بالعصر الذهبي للدراما التلفزيونية، إذ يجرح فينا إحساسا غريب الجمال، يمزج بين الحب والحزن، والاعتزاز بعمل بطولي، وبكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، على مستويات الكتابة والتعميل والإخراج.. وحتى التلقي، نعم التلقي، ذلك أن الالتقاء حول جهاز التلفزيون كان بمثابة الموعد المقدس الذي لا يتخاصم فيه أفراد الأسرة على جهاز الريموت كونترول الذي لم يظهر أصلا، في عصر ما قبل الفضائيات.

أيقونة مكتملة الأضلاع

"ليالي الحلمية" مسلسل طبع جيلا بأكمله، ونسج على منواله - أو حاول - كتاب كثيرون آخرون في مصر والعالم العربي، من حيث الرغبة في مسح تحولات اجتماعية وسياسية وثقافية ورصدها من خلال منطقة سكنية تمثل بؤرة لأحداث دراماتيكية تصلح لأن يستأنس إليها علماء الاجتماع.



ينبغي القول إن ليالي الحلمية قد حقق الشهرة والنجومية لكاتبه أكثر من مخرجه إسماعيل عبدالحافظ

كتب هذه السلسلة التي امتدت إلى عدة أجزاء، أسامة أنور عاكشة (1941 - 2010)، وأخرجها إسماعيل عبدالحافظ (1941 - 2012)، ويصور فيها التاريخ المصري الحديث منذ عصر الملك فاروق حتى مطلع التسعينات. وكانت بداية عرض الجزء الأول عام 1987 ثم امتدت إلى عام 1995.

المسلسل يقدم التاريخ المصري من خلال تاريخ حي الحلمية، الذي كان في بدايته حيا راقيا للباشاوات والطبقة الأرستقراطية، ثم تحول إلى حي شعبي يقيم فيه البسطاء من عامة الناس، وشارك الفن المصري في تتابع مستمر للأحداث والشخصيات، زاد عددهم على 300 ممثل، وهو - في أجزاءه الخمس - من إنتاج "قطاع الإنتاج في التلفزيون المصري" أي أنه في مامن من انزلاقات وانزياحات وتحريفات قد يجسر إليها القطاع الخاص.

وبالعودة إلى هذه الأغنية التي وصفت بالأيقونة مكتملة الأضلاع، وكتب كلماتها الشاعر سيد حجاب، حيث تجاوزت كونها مجرد شارة غنائية لأطول وأمتع مسلسل اجتماعي في التاريخ العربي الحديث، استقلت بنفسها كأغنية مازال الفنان محمد الحلو، يؤديها في العديد من المناسبات كان أهمها مهرجان ومؤتمر الموسيقى العربية السابع والعشرين المقام على المسرح الكبير بدار الأوبرا المصرية عام 2018، أما الإحسان فتحمل بصمة وتوقيع الموسيقار ميشيل المصري.

